مخطوط "رحلتي لزيارة قبر الوالد" للشيخ ضيف الله بن محمد بن أُبّ التواتي الجزائري
- دراسة في الأبعاد الاقتصادية للرحلة -

The Manuscript of "My Trip to the Tomb of my Father"
by Šayḫ Ẓayf Allāh bin Muḥammad bin Ubba al-Tuwwātī al-Ǧazāʾirī
- A Study on the Economic Dimensions of the Trip -

أحمد جعفري
الجامعة الإفريقية أحمد درايعية - أدرار
adjaafri@univ-adrar.edu.dz

الملخص:
يعتبر مخطوط "رحلتي لزيارة قبر الوالد" للشيخ سيدي ضيف الله بن محمد بن أُبَّ التواتي الجزائري واحدا من أهم المصادر التاريخية التي أرخت لإقليم توات جنوب الجزائر خلال القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي (12هـ/18م) وما قبله، فالرحلة وإن كتبت أساسا في تتبع دقيق أخبار الشيخ سيدي محمد بن أب المزمري والد المؤلف وأحد أعلام الإقليم في عصره إلا أنها قد حملت مع ذلك العديد من الإشارات العلمية والدينية وكذا الاجتماعية والاقتصادية لساكنة الاقليم خلال تلك الفترة وما قبلها، ومن هنا جاء تفكيرنا في تسليط الضوء على الرحلة المخطوطة انطلاقا من أبعادها الاقتصادية التي صبغت حياة ساكنة الإقليم التواتي خلال القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي وما قبلهما وقبل ذلك كان لزاما علينا الوقوف بين يدي مخطوط الرحلة تقديما وتوصيفا، وبين يدي صاحبها تعريفا وتبيينا.

الكلمات المفتاحية: ضيف الله، توات، مخطوط، رحلة، الأبعاد الاجتماعية، الأبعاد الاقتصادية، محمد بن أب المزمري، قبر الوالد، زيارة.

Abstract:

The manuscript "My Trip to Visit the Tomb of my Father" by Šayḫ Ẓayf Allāh bin Muḥammad bin Ubba al-Tuwwātī al-Ǧazāʾirī is one of the most important historical sources of the history of the region of Twāt, in the South of Algeria during the twelfth century Hegira (eighteenth century in the Common Era) and before. Althoutgh the trip was written essentially in a detailed tracing of the news of Šayḫ Sidi Muḥammad bin Ubba al-Muzammiri, the father of the author, and one of the prominent figures in the region in his time, bringing many scientific, religious and socio-economic signs to the inhabitants of the region, during that period and before. This led us to think about shedding light on this trip departing from its economic dimensions which marked the life of the inhabitants of Twat during that period and before. We start by introducing the manuscript and give a biography of the author. Who is, the author, Šayḫ Ẓayf Allāh bin Muḥammad bin Ubba al-Tuwwātī, and who is Muḥammad bin Ubba al-Tuwwātī al-Ǧazāʾirī whose trip came essentially to trace his path? What are the important economic dimensions covered by the trip? What is its impact on the local people? These are few of several questions we are going to answer through the exploration of this trip, which is considered amongst the oldest and most precious documents about the history of the region of Twat.

Keywords: Ẓayf Allāh, Manuscript, Twāt, Trip, Social dimensions, Economic dimensions, Muḥammad bin Ubba al-Muzammiri, The Tomb of my Father, Visit.

مقدمة:

جاءت رحلة الشيخ ضيف الله بن محمد بن أب التواتي أساسا -كما أخبرنا في مقدمته في تتبع أخبار والده الشيخ سيدي محمد بن أُبَّ- أحد أهم أعلام القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي (12هـ/18م)، حيث جعل حديثه بداية ونهاية حكرا على والده في كل شاردة وواردة. وبين هذا الخبر وذاك كان المؤلف يعرج بنا إلى العديد من المحطات الاجتماعية والاقتصادية التي طبعت حياة ساكنة الإقليم خلال تلك الفترة وما قبلها، وكان لها حضورها القوي في حياة والده، أو حياته هو بنفسه، فكان يقف عند كل حادثة في كل محطة من تلك المحطات وقوف الواصف المتأمل الذي أخذ على عاتقه وصف الأحداث والتأريخ لها بأمانة ومصداقية حتى وإن تعلق الحدث به هو شخصيا أو بوالده أو بأحد أفراد أسرته.

ولما كانت الأحداث الاقتصادية من أكثر القضايا إشارة عند المؤلف في كتابه، وهي أكبر من أن نقف عندها في حدود بحث أو مقال بعينه فإننا آثرنا الوقوف عند بعضها تمثيلا ليكون نموذجا لباقي المحطات في هذا المجال. وقبل ذلك كله وجب الوقوف عند بعض المحطات التي طبعت حياة المؤلف الشيخ ضيف الله بن محمد بن أب التواتي الجزائري.

1. التعريف بالمؤلف:

ولد الشيخ سيدي ضيف الله بن محمد بن أُبّ المُزّمّري - كما أخبر والده - يوم السبت السادس عشر من شهر شوال سنة ثمانية وعشرين ومائة وألف (1128هـ/1716م). وقد دعا له والده منذ ولادته بقوله "أصلحه الله وجعله من حملة القرآن"[1] وعلق سيدي ضيف الله على دعوة أبيه بقوله "فقبل الله دعاءه... ولم يكتب مثل ذلك لأحد من أولاده"[2]. ويواصل الشيخ ضيف الله التعريف بنفسه في رحلته قائلا: "وكان والدي يباهي بي أولاده كثيرا في عيشتي، وشاورني في كثير من أموره مع صغر سني... وأشركني في كثير كتب حبَّسَها"[3]. من أبناء الشيخ سيدي ضيف الله ابنه محمد الذي سماه باسم جده تبركا بالرسول محمد (ﷺ) كما قال وولد له ثلث ليل يوم الجمعة الرابع من رمضان سنة ثمانية وخمسين ومائة وألف (1158هـ/1745م).

كان الشيخ سيدي ضيف الله كما وصفه أحدُ قضاة[4] عصره أشعر من أبيه محمد بن أُبّ، وله العديد من القصائد الشعرية منها مرثيته في أبيه التي أشار إليها في

رحلته ولم نقف إلا على أبيات ثلاثة منها. كما أخبرتنا الرحلة عن العديد من الأخبار المتعلقة بحياته وحياة والده من جهة، وبين مختلف المسائل والفوائد العلمية التي أضْفَتْ على نص الرحلة مسحة خاصة، واستطاع المؤلف من خلالها أن ينقل للقارئ كمّا هائلا من المعلومات العلمية التي استقاها من جلساته المختلفة مع علماء وأولياء عصره الذين التقى بهم، وتناقش معهم، واستفاد منهم واستفادوا منه -كما قال- وهو ما أضفى حراكا مميزا على واقع الحركة العلمية بالإقليم.

2. آثار المؤلف ومؤلفاته:

لقد حمَلَت لنا رحلة الشيخ سيدي ضيف الله العديد من الإشارات التي تؤكد أن للرجل قلما سيَّالا كتب به في الكثير من الفنون والأغراض، ولعل ما ورد في رسالة والده الشيخ سيدي محمد بن أُبَّ إليه بما حملته من انتقادات لاذعة حول استثمار ورق الكتابة من جهة، و تحسين الخط، واختيار المداد من جهة أخرى، كل ذلك يؤكد على أن الرجل كان مولعا بالكتابة؛ حيث يخاطبه والده سيدي محمد بن أُبَّ ويقول: "وأيضا رأيت أنّك في احتياج أبدا إلى الكاغيد لأني رأيتك لا تكتب إلا في الظهائر سواء كان الكاغيد عندك أم لا، مع أني بعثتُ لك شيئا منه، وبعده كتَبتَ لي في كاغيد مكتوب صغير بخط رديء، ومع ذلك لا تبالي بالقلم الذي تكتب به هل هو رقيق، أو غليظ، أو مكسور، ولا بالمداد هل هو جيد أو رديء، والحاصل أمرك في ذلك مخالف لأمر الطلبة الظرفاء. ويرحم الله من صنع شيئا فأتقنه"[5].

كان هذا بالتأكيد في بداية الطريق حين كان المؤلف سيدي ضيف الله طالبا متنقلا بدَوَاتِه بين مجالس العلماء، لكن الرجل وبعد طول مزاحمته للعلماء تضلَّع في شتى العلوم، وأصبح بحرا ومقصدا لكثير من طلبة العلم في الإقليم، ليكون بذلك شبلا للأسد سيدي محمد بن أُبَّ الذي سأله يوما الشيخ الحاج أحمد بن سيدي يحي التميموني هل استفاد منك ابنك ضيف الله؟ فأجابه بأنه استفاد منه، وما في توات خير منه[6].

ورغم كل هذه الشهادات إلا أن الذاكرة المحلية لم تَحفظ لنا الشيء الكثير من مؤلفات الشيخ سيدي ضيف الله لحد هذه الساعة، ونحن على يقين في الوصول يوما إلى ما فلت من الإنتاج الغزير للمؤلف. ولعل في وقوفنا الحالي على بعض مخطوطات الرجل بعد مباشرتنا العمل في تحقيق هذه الرحلة، ولم نكن قد سمعنا

بها، أو بعناوينها قبل هذا التاريخ إلا خير شاهد على ما نقول.

ومن جملة ما وقفنا عليه من مؤلفات الشيخ سيدي ضيف الله بن سيدي محمد بن أُبَّ نذكر:

أ. مخطوطه المسمى: "الحُصون المنيعة في أحكام الوزيعَة"[7].

ب. قصيدة شعرية[8] مطولة من اثنين وثمانين بيتا، نظمها في بيان حزنه عن عدم إدراكه لكثير من علماء السلف الصالح حيث عدد بعضا منهم وواسى نفسه بمن بقي منهم. افتتحها بقوله:

حَزِنْتُ لِفَقدِ الصَّالحِين السَّوابِق *** وَعَلَّلْتُ نَفْسِي بالبَواقِي اللَّوَاحِقِ

ولَكِن إذَا غَابُوا فَلِلْقَلبِ لَوعَةٌ *** بِتذْكَارِهِم تُطْفي شُمُوسَ الشَّوارِقِ

وختمها بقوله:

وآله والأصحاب والرسل جملة *** صلاة دواة الضحى والأصائل

ج. قصيدة شعرية[9] لامية في الموضوع السابق مع المناسبة نفسها، مطلعها:

حَزِنْتُ لِفَوت الصَّالحِين الأوائل *** وَعَزيت نَفْسِي بالبَواقِي اللَّوَاحِقِ

د. مخطوط قصيدة في جمع أذكار الفِدْيَة من النَّار[10] مطلعها:

الحمدُ لله العظيمِ البَاري مُنْجي العبيد من عذاب النّار

وختمها بقوله:

وَصَلِّ أَوَّلًا وَآخِراً عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ خَيْرِ المَلَا

هـ. بعض النوازل والفتاوى الفقهية المختلفة التي وقفنا عليها هنا وهناك.

وإلى جانب التأليف مارس المؤلف الشيخ سيدي ضيف الله نسخ المخطوطات التي وقعت في يده ليُكَوِّن منها مكتبتَه الخاصة، وفي ذلك ينقل لنا الشيخ سيدي المغيلي بن أحمد بن عبد الرحمن الزَّجلاوي في رسالته التي بعث بها للشيخ سيدي أبي فارس محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن البلبالي، وراجعه فيها حول تشديد ميم لفظة (عَمَّرَ) بدلا من تخفيفها، وما ثبت في ذلك من نقول عن علماء عصره، وفي مقدمتهم الشيخ سيدي ضيف الله بن محمد بن أُبَّ الذي وصفَه الكاتب بقوله: "... فأما الأول فشهد له والده سيدي محمد بن أُبَّ أنه لم يُخَلِّف في توات مثله، فوجدت بخطه نسخة من تخميس الشاطبي لأبيات (سكن الفؤاد) إلخ"[11].

3. وفاة المؤلف:

لعل آخر ما وقفنا عليه ضمن رحلة البحث عن وفاة الشيخ سيدي ضيف الله بن سيدي محمد بن أُبَّ في آخر عهدنا به هو ما سجله بنفسه في نهاية مخطوطه "الحُصون المنيعة في أحكام الوزيعَة" وأخبرنا أنه كان حيا حتى أواخر شهر شعبان من سنة ثمان وسبعين ومائة وألف (1178هـ) حيث قال في نهاية تأليفه: "... عصمنا الله بفضله، ورزقنا العلم والعمل به، وأعاننا على القيام بحقه إنه قريب مجيب. على يد جامعه أواخر شعبان المنير عام ثامن وسبعين ومائة وألف. عبيد ربه ضيف الله بن محمد بن أب كان الله له... بحمد الله وحسن عونه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله"[12].

4. التعريف بالمخطوط:

يعتبر مخطوط رحلة الشيخ سيدي ضيف الله بن سيدي محمد بن أُبَّ المزَّمِّري لزيارة قبر والده محاولة جادة من المؤلف لرصد وتتبع مجموع أخباره وأخبار والده الشيخ سيدي محمد بن أُبَّ على مدار محطَّات رحلات ثلاث قام بها المؤلف انطلاقا من مسقط رأسه وصولا إلى قبر والده، وقد كانت الرحلة الأولى من المؤلف في حياة والده الشيخ سيدي محمد بن أُبَّ -كما قال- وبقي معه عشرين يوما. أما الرحلة الثانية، فقد جاءت بعد تلقيه نبأ وفاة والده، لكنها لم تكتمل، وتوقفت بعودة ابن عمّه سيدي محمد وديعَة الله الذي رجع ومعه جزء من تركة المرحوم، فهَمَّ المؤلف راجعا لبلده، ومن هناك استعد للرحلة الثالثة والكبيرة لزيارة قبر والده.

ولقد اعتمدنا في دراستنا لهذا المخطوط على نُسختَين مختلفتين، وبخط ناسخين مختلفين أيضاً، حيث جاءت النسخة (أ) من هذا المخطوط في مائة وعشر (110) صفحات من الحجم الكبير، بمعدل ثلاثة وثلاثين (33) سطرا في كل لوحة، وعشرين كلمة في كل سطر تقريبا. وقد جاءت هذه النسخة بخط مغربي دقيق جداً، ختمها المؤلف بمجموعة من الملاحق لبعض القصائد والمنظومات.

وفي هذه النسخة (أ) العديد من الإشارات التي توحي لنا بأنها منقولة من خط المؤلف، وليست نسخة المؤلف نفسها، من ذلك ما ورد في هامش متن الصفحة السابعة والتسعين ما نصه: "دلدول أولاد محمود بتَبَعٍ، كذا بخط المؤلف في الأصل،

فإنّي لم أفهمه" وهنا نرى الناسخ يستغرب من ورود بلدتين متتابعتين، وهما (دلدول وأولاد محمود) دون فاصل بينهما، رغم أن الأصل أن كلا منهما مستقل عن الآخر.

كما جاء في داخل متن النسخة (أ) إشارة توحي بأن الرحلة وإن كان الشيخ سيدي ضيف الله قد قام بها في صيف سنة 1160 هـ/1747م إلا أنه استمر في تبييضها إلى سنة 1168هـ/1755م، وذلك عند حديثه عن الشيخ أبي الأنوار، حيث جاء في هامش متن أعلى الصفحة التاسعة والستين ما نصه: "وتُوفي الشيخ سيدي أبو الأنوار يوم السبت الرابع والعشرين من هذا الشهر، وفي هذا الوقت عام 1168هـ/1755م من خط المؤلف"[13].

وقد جاءت هذه النسخة تحمل عناوين فرعية صغيرة على الحواشي، وخالية من التعليقات الهامشية إلا نادرا، ولم يخصص الناسخ للعنوان جانباً، أو صفحة خاصة، بل ورد ضمن السياق العام. كما أننا حين نقف على النص المكتوب بالهامش الأيمن من الصفحة الثامنة والتسعين (98) نجده يحمل توقيع كاتبه، وهو عبيد الله تعالى محمد الحسن، بن سعيد بن عبد الكريم، بن محمد بن البكري. وهو نفس الخط الذي كُتب به متن الرحلة في نسختها (أ)، مما يرجح أن يكون الشيخ سيدي محمد الحسن بن سعيد البكري هو ناسخ هذه النسخة. ولعل ما يؤكد ذلك أكثر هو عثورنا على هذه النسخة من الرحلة ضمن مجموع واحد يحمل مخطوطا آخر ينسب للشيخ سيدي محمد الحسن بن سعيد وهو مخطوطه المعنون بـ: "تنبيه الأُخُوة بأَخبَار بعض أَهلِ الفُتُوَّة" والمسمى أيضا: "إعلام الإخوان بأخبار بعض السادات الأخيار". وقد خصه المؤلف لتراجم العائلة البكرية، واستفاد فيه من بعض النصوص والتراجم الخاصة بالعائلة والواردة في متن رحلة الشيخ سيدي ضيف الله.

أما النسخة الثانية للمخطوط التي رمزنا لها بالرمز (ب)، فهي تقع في ثمانين صفحة من الحجم الكبير، بمعدل تسعة وعشرين (29) سطراً في كل صفحة، وثمانية عشرة (18) كلمة في كل سطر تقريبا، وجاءت هذه النسخة بخط مغربي غليظ، بعض الشيء، ويبدوا أن ناسخها -وللأسف الشديد- لم يكن يهمه كثيرا التأريخ لأهم الأحداث التي وقعت للمؤلف في بعض بلدات الإقليم، فراح يتصرف من البداية في فقرات النص بالحذف العمدي للعديد من أخبار المؤلف، وكذا أخبار والده. وقد وصل به الحد إلى حذف صفحات بكاملها، مع الإبقاء على ما ورد من

معلومات فقهية وغيرها، والربط في ما بينها بداية ونهاية. وهو ما صعَّب علينا عملية المقابلة بين النسختين أحيانا.

وقد جاءت هذه النسخة (ب) مبتورة في النسخة (أ)، واكتفى فيها الناسخ بالدخول إليها من حديث المؤلف عن الضيف وحقوق الضيافة، رغم أنه صَدَّرَها هو الآخر بالبسملة والصلاة والسلام على رسول الله حيث قال: "فأول ذلك الضيافة، ففي البخاري: باب إكرام الضيف، وخدمة ضيفه جائزة"[14]. وأما في الختام، فقد جاءت النسخة ناقصة من بعض صفحاتها المتعلقة أساسا بما جاء من ملاحق في النسخة (أ).

وبالنظر إلى كل هذا فقد اعتمدنا النسخة (أ) أصلا بالنظر إلى ما توفَّر فيها من شروط مقارنة بالنسخة (ب)، وقابلنا عليها النسخة (ب) لنخرج في الأخير بما نعتقد أنه النص الأقرب إلى ما كتبه المؤلف، أو أراد قوله، ومع هذا فقد اجتهدنا قدر المستطاع في رد كثير مما سقط من المخطوط في نسختيه (أ) و(ب)، وبخاصة ما تعلَّق بنقوله من المصادر والمراجع، وإلى هذا كله فقد تعسر علينا إكمال عدد غير قليل من الكلمات، والعبارات الساقطة من النسختين معا، رغم جهدنا المبذول في ذلك، واكتفينا أخيرا برسم نقاط ثلاث دلالة على السقط في أمكنته.

5. أهم الأبعاد الاقتصادية في الرّحلة:

لقد جاء العديد من الإشارات الاقتصادية في الرحلة ليعطينا صورة واضحة عن طبيعة الحياة المعيشية لساكنة الإقليم، وما كان عليه الوضع الاقتصادي عموما؛ حيث أشار المؤلف إلى أنه وعند حلوله بأي بلدة من بلدات الإقليم، فإنه يُستَقبَل بالعديد من الأطباق الشهية التي لا يُغني أحدها عن الآخر، وهي أطباق لم تكن عادية بتاتا، بل كانت مملوءة بأنواع العنب، والتمور، والحليب، والخبز المغشى بالسَّمن وما إلى ذلك. وفي كلام المؤلف الشيخ سيدي ضيف الله تأكيد لما ذهب إليه ابن خلدون في تاريخه معتبرا أن فواكه بلاد السودان كلها من أرض توات وغيرها[15].

والمؤلف في معرض حديثه عن وصف بعض البلدان التي زارها، لم يخف تعجبه من بعض مظاهر الحفاوة التي كان يستقبل بها، والتي جاءت لتعكس لنا بعضا من وجوه حياة الثراء والرفاهية التي كان عليها بعض ساكنة الإقليم ممن التقى بهم وأكرموه، كما هو الحال مع أبناء سيدي المجبري في بلدة تاسفاوت الذين قال في

وصفهم: "فأخرج لي أولاد السيد المجبري -جبر الله حالهم- فراشا تحار فيه الأعين، وأطعمونا مما لا تصفه الألسن، وأقمنا عندهم ثلاثة أيام"[16].

وغير بعيد عن بلدة تاسفاوت، فقد استَقبَل الشريف مولاي عبد الرحمن بن مولاي بوفارس صاحبَنا بحفاوة بالغة حينما زاره في بلده المنصور قادما من بلد عزّي في مرحلة العودة من الرحلة الأولى حيث يقول: "... فأصبحنا هناك بعَزّي مع أخلاط من الناس شرفاء وفلالة عندهم الخيل تباع، وإذا بالشريف الحسني مولاي عبد الرحمن بن مولاي بوفارس جاءنا راكبا على فرس، فقمنا له وسلَّمنا عليه، فلما أردنا الرحيل عزم علينا أن نُقَيِّل عنده للبركة، فسرنا لبلده، فأدخلنا دارا تشهد لبانيها بالثراء والكرم والغنى، فبسط فيها قطيفة تنوء بالعصبة أولي القوة، فمكثنا يسيرا فأرسل إلينا تمر (بَامَخْلُوف) لا تصفه الألسن، ومعه كثير لم يتغير طعمه، فأكلنا حتى شبعت البطون، ولم تشبع القلوب والعيون.... فَقِلْنا عند الشريف المذكور، وعند الزوال أرسل لنا تَسَدْبِيْت يحملها أصحابه كأنها جنازة في كساء، ونسيت كم هم فأكلنا منها أجمعون وبقيت بحالها -عَمَّرَه الله آمين- وخرجنا من بلده المنصور، وهذا اسم موافق لمسماه، وخرج معنا يشيعنا ودعونا له بخير"[17].

ونجد الأمر يتكرر مع المؤلف في بلدة وفران التي أجزل عليه أهلها العطاء الوفير مما جعله يصفها بالأحسن ضيافة خلال هذه الرحلة حيث يقول: "فوصلنا وقوف الشمس مدينة وَفْرَان -عمَّرَه الله بأهله آمين- وهو قصر كبير مشتمل على قصرين أو ثلاثة، وماؤه عذب فرات، والله ما ذقت قط ماء أحلى، كأنه خُلط بشهد أو دبس. في يوم الأربعاء الثاني من شعبان المنير، فتلقى لنا الحاج علي، وهو رجل فاضل متواضع، فَسلَّم علي وعلى أصحابنا، وفعل معه ولدنا كما يفعل الولد بالوالد، وأخذ حوائجي بيده وجعلها على كاهله، فحاولت أن أخفف عنه فأبى، فسرنا حتى دخلنا دار الأضياف، ووجدناهم فرشوا لنا قطيفة كبيرة، ووجدنا هذا المحب الفاضل حبيبنا في الله الإمام السيد مَحَمَّد عريان الراس المَلاَّيخافي، وسلّمنا عليه ورحب بنا غاية، ودعا لنا بخير، وهو من أهل المحبة القديمة، فما لبثنا أن جاءونا برطب بامخلوف عجيب، وأكرمونا غاية الإكرام - أكرمهم الله بالنعيم - وصاروا يدخلون علي أفواجا ولا يفترقون معي يسألون عن مسائل العلم والدين. وحين جئت قال لي السيد مَحَمد المذكور: لا إله إلا الله، في مثل هذا اليوم من هذا الشهر جاءنا أبوك

عام أول، ومكث عندنا ثلاثة عشر يوما. وأخبرني رجل أنه حين جاءهم الشيخ [18]- رحمه الله- أنزله السيد مَحَمَّد بداره وذبح له كبشا. وعادة أهل وفران أنهم يحضرون لنا التمر الرطب واللبن والعِنَب والغِذاء والفَلِّنَصْ[19]. فأقمنا عندهم أربعة أيام، فاليوم الأول عند الحاج علي، واليوم الثاني عند صهره الطالب محمد، وهو رجل فاضل شاب ظريف زكي، واليوم الثالث نقلنا سيدي مَحمد لداره وأكرمنا أكثر من ذلك، واليوم الرابع تعشينا عند الحاج علي، وخرجنا مع أصحابه عامدين لمدينة تيميمون، والحاصل ما أقمنا ببلد أفضل من وفران حتى تيميمون. وما قدَّموا لنا طعاما إلا وفيه السَّمْنَ واللَّحْمَ أحدُهُم لا يُغْنِي عن الآخر "[20].

وحينما نزل المؤلف في ضيافة الشيخ القاضي سيدي امحمد بن عبد الرحمن بن الجوزي في بلدته تِلُّ ضواحي مدينة تيميمون قدَّم لهم عنبا كثيرا وتمرا عجيبا كذلك وفي ذلك قال المؤلف: "فخَرجنا للرَّملِ، وبعد صلاة المغربِ، أرسلَ لنا مْشَرْبَةَ عِنَبٍ فوقَها طَبَقٌ فيه تَمرٌ عَجيب "[21].

وغير بعيد عن بلدة تِلُّ وفي بلدة ماسين استقبل الشيخ الحاج علي صاحبَنا وقدَّم له ذلك الطبق المشهور في الإقليم في فصل الصيف ألا وهو التمر والعنب، وقد قدّمه لهما بالخبز الميْدُوم، وحليب الناقة كما قال: "... وجاءني الحاج علي بقُفَّةِ فيها عنب، وخرج وجاءني صاحبُه بتمرٍ في طبق على زْلَافَة فيها خُبزٌ مأدُومٌ بِسُمْنٍ، وقُلَّةٍ فيها لبَنُ ناقَة، فأكلتُ الخبزَ لعَدمِ رغبتي في التَّمر ذلك اليوم، وأكلتُ العِنَبَ، وذُقْتُ اللَّبنَ فإذا هو لَبنُ ناقة فأعْرضْتُ عنه، ودفعتُهُ له فَرَدَّهُ، وجاءني بالماء البارد في قُلَّةٍ أخرى وبِتُّ عندَهم تلك الليلة، وأكثر علي من اللحم والسَّمنِ، وجاءني بالطعام ولد الحاج علي فهو أحلى عيشٍ ذقتُ بتِقُرَارين... فأصبحت بهذه البلد المذكورة، فلما حلَّت النافلة، أصبحوا علي بتَمر ولَبنٍ ومحَمَّصة غشاها السَّمن، فأكلتُ من ذلك ما أردت، وجاءني طالب بِبَيضٍ في زْلَافَة"[22].

أما طعام بلدة إقسطن بناحية قورارة، فهو بخضرته وطريقة تحضيره أشبه ما يكون بطعام إقليم توات وهو ما لمسه المؤلف في بيت مستضيفه الفقيه الحاج عبد الرحمن حيث يقول: "وأكرمني السيد الفقيه غاية الإكرام، وإذا طعامهم بخُضْرَته، ويُعاودُونَه كطعام توات... وجميع قُرَارَة قال لي هم يعاوِدونَ الطعامَ "[23].

ومن الإشارات الاقتصادية الواردة في الرحلة كذلك حديث المؤلف في أكثر من مناسبة عن العملة الاقتصادية التي كان يتم بها البيع والشراء داخل الإقليم خلال تلك الفترة من القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي، وهي المعروفة بالموزونة وهي -كما قلنا- وحدة نقدية من الفضة وقد تكون من الذهب الخالص كذلك، تكون في شكلها دائرية رقيقة الحجم، وهي في الفضة بثلاثة أنواع وأحجام: الربَيَّع (ويعادل نصف فراك)، والربَّال (ويعادل 02 فراك)، والدُّورُو (ويعادل 05 فراك).

وحول تعامل ساكنة الإقليم بالموزونة في مبادلاتهم الشرائية يقول المؤلف: "وُجِدَ عندي ما نصه: حدثني من أَثِقُ به أن عامَنا هذا بيع فيه الدُّهن ببلد تيميمون بثلاثة غلاليس للموزونة، ومائة... بأربع موزونات للواحد، منها موزونة للدّلَّال، وأخرى للراعي، والثالثة لربِّ الدار، والرابعة لربِّ الغنم"[24].

كما أن والد المؤلف الشيخ سيدي محمد بن أب كان قد فُتِح عليه في علم النحو -بحسب أخبار الرحلة- بعدما قَدَّمَ ما عنده من موزونات للشيخ سيدي أحمد التوجي في بلدته تسفاوت كما يقول المؤلف: "... وأما النَّحو والعروض، فلم يأخذهُما الشيخ عن أحد -رحمه الله- وإنما فتح الله له فيهما ببركة الصالحين، أما النحو، فعلى يد الولي الصالح سيد أحمد التوجي وذلك أنَّ والدي لما رحل لسجلماسة مَرَّ به في قرية تسفاوت، فطلب منه أن يقرئه أبياتا منه، فأجابه إلى ذلك، و قرأ له نحو بيتين، ثم وقف ينظر يمينا وشمالاً على عادته، فتعلَّق الشيخ بطرف ثوبه، وطلب منه أن يكمل له تلك الأبيات، وألح عليه، فاعتَرَتْهُ حالة الجذب، وقال له: اشْتَرِ مِنِّي النَّحو. فنظر فوجد في طرفه موزونَتَين فأعطاهما إياه"[25].

كما يخبرنا المؤلف في ثنايا الرحلة عن حضوره لتعامل آخر بهذه العملة، حدث ذلك حينما كان في بلدة تِلُّ في حضرة قاضيها الشيخ الجوزي، حيث تقدم رجل من القاضي، وسلمه موزونتين وفي ذلك يقول المؤلف حكاية عن الشيخ الجوزي: "... فكتَبَ ما في يده ودفَعَهُ لرَجُلٍ، ودَفَعَ له الرَّجُلُ مَوْزُونَتَيْنِ."[26].

وإضافة إلى هذا فقد حَمَلَ لنا عام الرحلة هذا الموافق لعام الستين من القرن الثاني عشر الهجري ـ كما ذكرنا ـ العديد من الأخبار المفرحة والمحزنة، وقد وثَّقَها لنا المؤلف الشيخ سيدي ضيف الله اعتمادا على ما وقع في يده من خط الشيخ علي بن محمد عبد الله التماسغتي حيث يقول: "وُجِد عندي ما نصه: حدثني من أثق به

أن عامنا هذا بيع فيه الدهن ببلد تيميمون بثلاثة غلاليس للموزونة، ومائة... بأربع موزونات للواحد، منها موزونة للدلال، وأخرى للراعي، والثالثة لرب الدار، والرابعة لرب الغنم كما وجهت فيها الغنم من ناحية بلاد تمنطيط إلى بلاد أتسابيت من كثرتها وقلة راعيها. ورجعت... من تيميمون إلى الظهرة من كثرتها، ورأينا فيها والعياذ بالله انتهاك حرمة رمضان بغير موجب وهذا كله وقع بعام ستين... عد المائة والألف، وجل ذلك ثبت معاينة عندنا وما... سمعناه سماعا فاشيا. علي بن محمد عبد الله التماسغتي"[27].

خاتمة:

في ختام هذا البحث أمكن القول إن هذه الرحلة هي بحق من أنفس وأقدم المخطوطات التي أرخت لواقع الحياة الاجتماعية والاقتصادية داخل الإقليم التواتي على مدار عصور من الزمن، ولم يكتف فيها المؤلف عند حدود نقل الخبر وسرده بل تعداه أحيانا إلى إبداء رأيه وموقفه من كثير من القضايا السائدة في عصره. وهي إلى هذا قد أعطتنا صورة حية لكثير من العادات والتقاليد الاجتماعية داخل الاقليم. كما وقفت عند كثير من المظاهر الاقتصادية التي شهدها الإقليم في عصر المؤلف وكان لها وقعها المباشر على حياة الساكنة.

وإضافة إلى هذا كله فقد نقلت لنا الرحلة صورة مصغرة لواقع الحياة العلمية في المنطقة وما شهدته من حراك ثقافي بين مجموع علماء المنطقة ونظرائهم من داخل الجزائر وخارجها.

وقبل كل هذا وذاك فإن الرحلة قد قدّمت لنا معلومات إضافية وشافية عن عائلة الشيخ سيدي محمد بن أُبَّ الصغيرة والكبيرة، وأزاحت اللثام في ذلك عن كثير من الشكوك التي كانت تحوم حول نسبة والد المؤلف وموطنه الأصلي. كما عكست لنا ثقافة المؤلف نفسه ومدى تَشَبُّعِه بروح الثقافة العربية الإسلامية، وهو ما مكَّنَه من الرجوع إلى سور القرآن الكريم بما يزيد عن تسعين آية قرآنية ومائة حديث نبوي شريف ناهيك عن الأشعار والأمثال العربية القديمة.

الإحالات والهوامش:

[1] ضيف الله بن محمد بن أب المزمري، مخطوط رحلتي لزيارة قبر الوالد، خزانة تمنطيط، أدرار الجزائر، ص 76

[2] المصدر نفسه.

[3] المصدر نفسه.

[4] ذكر لي الأستاذ عبد الرحمن الجوزي أحد أحفاد عائلة الجوزي بتيميمون أن القاضي الجوزي المقصود هنا هو قاضي بلد تِلُّ وقورارة الشيخ الفقيه القاضي أبو زيد سيدي امحمد عبد الرحمن بن محمد الجوزي بن محمد عبد الله بن عبد الكريم، أخذ في تنلان عن الشيخ سيدي عمر بن عبد القادر التنلاني المتوفى سنة (1152هـ). توفي الشيخ سيدي امحمد عبد الرحمن بين تاريخ 25 ربيع الثاني 1172هـ تاريخ كتابته لوصيته، وسنة 1182هـ تاريخ نسخ الناسخ لتلك الوصية وترحمه عليه في نهاية النسخة. وهو مدفون ببلد أولاد اسعيد بإقليم قورارة.

[5] ينظر: مخطوط الرحلة، ص17.

[6] ينظر: مخطوط الرحلة، ص 64.

[7] المخطوطة جاءت مؤرخة بتاريخ أواخر شعبان عام ثمان وسبعين ومائة وألف (1178هـ) هجرية، وهي محفوظة في مكتبة الطالب أحمد بن حسان ببلدة عريان الراس، شمال الولاية أدرار. وتوجد نسخ منها في خزانة الشيخ مولاي أحمد بن مولاي عبد الحاكم بن مولاي لحسن ببلدة كالي بلدية أولاد سعيد دائرة تيميمون ولاية أدرار.

[8] المخطوط محفوظ في نسخته الأصلية بمكتبة أحمد بابا بتمبكتو بجمهورية مالي وهو برقم: 615 وهو في ثلاث ورقات وخمس صفحات. وقد كتب بخط مغربي مقروء. وقد تحصلت على نسخة رقمية منه.

[9] المخطوط محفوظ في نسختين بخزانة أنزجمير بولاية أدرار.

[10] المخطوطة محفوظة في خزانة أنزجمير بولاية أدرار.

[11] مخطوط رسالة الشيخ سيدي المغيلي بن أحمد بن عبد الرحمن للشيخ سيدي أبي فارس محمد عبد العزيز البلبالي، ص 03. مخطوط محفوظ بخزانة أنزجمير بولاية أدرار.

[12] مخطوط محفوظ بخزانة الشيخ مولاي لحسن بن مولاي لحسن بن مولاي أحمد، قصر أولاد موسى شروين.

[13] مخطوط الرحلة، ص69.

[14] مخطوط الرحلة، ص1.

[15] تاريخ ابن خلدون،مج1، ج1، ص 93.

[16] مخطوط الرحلة، ص 29.

[17] مخطوط الرحلة، ص 38.

[18] المقصود بالشيخ هو والد المؤلف الشيخ سيدي محمد بن أُبَّ المزمري.

[19] هو نوع من البطيخ الأحمر(الدلاع) يمتاز بطوله وعذوبته وهو هنا باسم الجمع واحدته فلنصوة، ولم يبق له أثر حاليا في القصر وقد ظهرت أنواع أخرى بدلا منه.

[20] مخطوط الرحلة، ص 53 وما بعدها.

[21] مخطوط الرحلة، ص 87.

[22] مخطوط الرحلة، ص 88 وما بعدها.

[23] مخطوط الرحلة، ص 92.

[24] مخطوط الرحلة، ص 68.

[25] مخطوط الرحلة، ص 71.

[26] مخطوط الرحلة، ص 87.

[27] مخطوط الرحلة، ص 68.

قائمة المصادر والمراجع:

1- ابن خلدون، عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1983.

2- البلبالي، الشيخ سيدي أبي فارس محمد عبد العزيز، مخطوط رسالة الشيخ سيدي المغيلي بن أحمد بن عبد الرحمن، مخطوط محفوظ بخزانة أنزجمير، أدرار، الجزائر.

3- جعفري، أحمد أبالصافي، الحركة الأدبية في أقاليم توات من القرن 07 هـ حتى نهاية القرن 13هـ، منشورات الحضارة، الجزائر، الطبعة الأولى، 2009.

4- ضيف الله بن محمد بن أبّ، مخطوط رحلتي لزيارة قبر الوالد، خزانة تمنطيط، أدرار، الجزائر.